المبحث الثاني

الحياة والموت

هناك تلازم وطيد لا انفكاك له بين الحياة والموت؛ لأَنَّ الموت هو النهاية الطبيعية التي لا بدَّ منها للحياة، وهذه حقيقة لا يمكن الجدل فيها، ولا الزيغ عنها، وتبرر رأي الوجوديين من أَن الموت هو الحقيقة الوحيدة والأَكيدة التي يعرفها الإنسان على الأرض، وهنالك التزام آخر بين الحياة والموت، وهو التزام زمني يجعل الموت أكثر ابتعاداً عن مجرى الحياة كلما تقدم الكائن في العمر، حتَّى لو بدا في طفولته وحداثته وشبابه وكأَنّه ينمو ويثبت أقدامه في الحياة[1].

ومما لا شك فيه أنّ قضية الحياة والموت عُرفت على مر الأَجيال وفي الحضارات الإنسانية كلها وكانت قضية مجابهة الموت هي القضية الأَساسية للوجود فهناك صراع أَزلي (بين الموت والفناء المقدرين وبين إرادة الإنسان المغلوبة المقهورة في محاولتها التشبث بالوجود والبقاء والسعي وراء وسيلة للخلود)[2]، وقد عُرف الإنسان بحبه الفطري للحياة، ورغبته في أنْ يمارسها بكل امتلاء وحيوية، وأَنْ يحياها بلا انقطاع أَو معرقلات، لذا كان خوفه شديداً من كل ما يعيق هذا النزوع مادياً أو معنوياً فيسعى جاهداً إلى تطمين هذا الخوف بإبعاد وسائله المباشرة[3]؛ لأَنَّ حبّ الحياة غريزة عند كلِّ إنسان ولذلك نراه يخاف الموت، بل إنَّ (النفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت)[4].

---

(1) ينظر: النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها: 2: 708.
(2) ملحمة كلكامش: طه باقر، دار الحرية – بغداد، 1980م: 42.
(3) ينظر: الموت والحياة في شعر نازك الملائكة: إيمان عبد دخيل، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة الكوفة، 1997م: 2.
(4) روح العصر، دراسة نقدية في الشعر والمسرح والقصة، د. عز الدين إسماعيل، دار الرائد العربي – بيروت، ط1، 1972م: 19.

ولعل الموت هو الذي يشعر الإنسان بالقنوط واليأس والقلق لذلك يعد الحياة رحلة عابرة (إنْ تكن حياة الإنسان لا تعدو هذه الرحلة العابرة من المهدِ إلى اللحدِ، فما أَبشعها من مأساة تدعو إلى القنوط وتخنق في الأَحياء منا إرادة الحياة !)[1].

إنَّ خوف الإنسان من الموت ومواجهته شيء بديهي لابدَّ منه؛ ولكن حبّ الحياة يسيطر على أَفعاله، وتصرفاته، والحبّ هذا يبعث الراحة والتفاؤل والأَمل بكل ما هو جميل كالشباب والربيع والمناظر الرائعة والصحة والخضرة وكل شيء ينعش النفس الإنسانية، ويزيد من تعلّقها بالحياة.

أَمَّا الجانب الآخر فهو الخوف من كل ما يعكر صفو النفس ويبعثها على الضجر والملل والتشاؤم، كالشيب والهرم والمرض والضعف الجسدي أو أَي أَزمة نفسية تجعله يقع في هوة الفناء واليأس من الحياة[2].

إنّ الحياة والموت (ينتمي أحدهما إلى الآخر)[3] في سلسلة من التطور الحياتي للكائن الحي انتماء أَدركهُ ذلك الرجل الحكيم الذي سُئل عن سبب موت أَخيه، فأجاب إنّها حياته ![4].

فالإنسان يموت منذ اللحظة التي ولد فيها، إلا أن الموت كواقعة وجودية آلية كانت مجبلة للفزع والحزن والمآسي عند الإنسان على الرغم من تكررها يومياً أمامه[5].

ويطالعنا ابن مسكويه (ت421هـ) بمجموعة من الأَسباب التي تكون باعثاً على الخوف عند الإنسان، منها: أنّ الإنسان يجهل ماهية الموت، وإلاّ تصير روحه بعد الموت، ولأنّه يظن أَن الموت فناء الذات كما هو فناء للجسد، أَو يعتقد أَن له أَلماً

(1) مقال في الإنسان دراسة قرآنية، الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف – مصر، ط3، 1995م: 121.
(2) ينظر: الزمن في شعر ابن حمديس الصقلي (ت 527هـ): 26 – 27.
(3) الموت والحياة في الفكر العربي، جاك شورون، ترجمة: كامل يوسف حسين – الكويت، 1984م: 225؛ وينظر: قلق الموت: أحمد عبد الخالق، سلسلة عالم المعرفة، ع: 11، الكويت، 1987م: 15.
(4) ينظر: الموت والحياة في شعر نازك الملائكة: 2.
(5) ينظر: مشكلة الإنسان، زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة : 118.

شديداً أَعظم من الآلام التي سبقته وأَدت إليه، أو خوفاً من عقاب ما يحل به بعد الموت، أَو أَسفاً على ما يخلّف وراءه[1].

ومن هذا كله اتضح أَنَّ الإنسان لا يخاف من الموت إلاّ لأنّه يتحول من دار إلى دار ومن دنيا إلى آخرة، ظاناً بذلك أنّ بعد الموت عذاباً، ولكن الشاعر المكفوف الأَندلسي بطبيعة الحال مسلم، ولذا عرف أنّه لا بُدَّ من أنْ يموت ولا بدَّ من بعث وحياة أخروية، إمَّا إلى نعيم، وإمَّا إلى عذاب، فهو عرف معنى قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[2] فالموت عندهم (قضاء الله وحكمته في أنْ يعيش الإنسان عمراً زائلاً في الدنيا ثم يعيش عمراً خالداً في الآخرة)[3].

وقد ارتبطت قضية الحياة والموت بالشعر أكثر من أَي فنٍ من فنون الأدب، فالشعراء نظموا قصائد منذ أَقدم العصور تعبر عن قلقهم وخوفهم من الموت، أَو التأمل فيه وإحساسهم بقدومه مادام الشعر انعكاس الحياة على نفس الشاعر[4].

ومن الطبيعي أنْ يربط الشاعر المكفوف الأندلسي – بسبب تشاؤمه – بين الزمن والموت أو بين الحياة والموت. وقد شكّل الشاعر المكفوف هذه الثنائية – الحياة والموت. في شعره بطريقة جدلية، ليتوصل إلى ربط الوعي وغير الوعي بين الموت وكف البصر؛ لان كف البصر شكل من أشكال الموت[5].

وقد صور ابن هذيل مصلوباً في شعره، خالطاً في ذلك بين موته وتعلقه بالحياة:

(من الكامل)

فَكأَنَّما فيه بقيّةُ روُحِهِ ... وكأَنَّما عن ريبةٍ لم يَنْطِق

مُتَقلّصُ الشَّفَتَين تحسب أَنّه ... في الجذع يَضحَك للعُلا إذ يَرتَقِي

(1) ينظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط2، 1925م: مادة (موت)، 9: 489.
(2) الرحمن: 26.
(3) قلق الموت: 14.
(4) ينظر: الفنان، توفيق الحكيم، دار الكتاب الجديد، 1970م: 253 – 255.
(5) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: 285 – 286.

أوفـــى عليـــه فـــي العُلُـــوّ كأَنّـــه مُتعلّـــقٌ بالفرقـــد المُتَعلِّـــق
قـــد قابَـــلَ الجهـــةَ التـــي كانـــت لـــه فكأَنَّـــه بـــاكٍ وإنْ لـــم يَشـــهَقِ[1]

نقل لنا من خلال هذه المقطوعة أسلوب الغياب والحضور، فقد شكّل الغياب موته وانتقال روحه، وسلب نفسه.

أَمَّا الحضور فتمثل بالجسد المصلوب المعلق. آخذاً من موته وحياته مادة لوصفه، فهو يجعله وكأنه فيه روح حين قال: (فكأنّما فيه بقية روحه) فلا يجد فيه حراكاً ولا كلاماً، حين قال: (وكأنما عن ريبةٍ لم ينطق) بل جعلنا نشاهد كيف تقلصت شفتاه حتَّى بدت كالابتسامة على وجهه، وهو في العلا يتصعدُ، وجعلنا نشعر بارتفاعه عن الأرض، ناقلاً بذلك ضعفه إلى قوة، وموته إلى حياة. وفي نهاية المقطوعة يصور لنا كيف كان في الوضع الحقيقي عندما أصابه الموت بأنّه (باكٍ وإن لم يشهق) استسلام للموت على الرغم من الكبرياء والعظمة. وله أبيات أخرى عن المصلوبين أيضاً، يقول:

(من الكامل)

تَتـــرى رُؤُوسُـــهم عَلَيـــك كأَنَّهـــا نُغَـــرٌ توافـــت فـــوق روس تـــلال (*)
صُـــفَّت بقارعـــةِ الرَّصـــيف كأَنَّمـــا تَقضِـــي صَـــلاَةَ الخـــوفِ دُونَ كَمـــالِ
فاســـتقبلتكَ كأَنّمـــا عـــن توبـــةٍ خَضَـعَت لـو ارتَفَعت إلـى الإمهـالِ[2]

ينقل لنا ابن هذيل مشاعره تجاه الذين فارقوا الحياة رغماً عنهم – كحاسته التي سلبت منه – فالشاعر يتخذ موقفاً من تكاثر الحوادث القاتلة التي تزيد من تأثيرها النفسي في الشاعر، على الرغم من كثرة الحوادث التي تجعل الإنسان تحت وطأة

(1) شعر يحيى بن هذيل: 109.
(*) تترى: تتوالى، أو تتابع.(لسان العرب: وتر)؛ نُغَرٌ: طير كالعصافير حمر المناقير. (الصحاح: نغر).
(2) شعر يحيى بن هذيل: 117.

تهديد لا يتمكن من دفعه ولا يجد له تفسيراً أو تعليلاً[1]. لذا أَخذ من الموت العنيف صورة للمصلوبين وكأنّه أَراد أَنْ ينقل لنا مكابدة الشيء الذي يؤخذ منك قسراً ودونما أي سبب يُذكر، وما يخلّفهُ هذا الفقدان من أَثر سلبي في نفسية الإنسان.

إنّ هذا الوصف الدقيق الذي يصوره لنا ابن هذيل، من خلال نقل المشهد المتصور في خياله، لم يكن وصفاً فقط، وإنّما نقلٌ للحالة النفسية التي يعانيها الشاعر من سلبه لبصره، فهو ما بين الحياة والموت لفقده هذه الحاسة.

إنّ رسم صورة المصلوبين من ابن هذيل لم تكن تصويراً فنياً فحسب، بل إنّها أَثارت في نفسه الخواطر، وحركت المشاعر، والتعامل مع وعي الشاعر، لذا جاءت بهذه الصورة المؤلمة.

وقد صوّر ابن الحناط الحياة والموت في رثائه لأبي العباس ابن ذكوان (ت 413هـ)[2] بقصيدة فريدة أوّلها: **(من الطويل)**

عفاءً على الأَيّام بعد ابن ذَكوانِ ... وقبحاً لدنيا غيَّرتْ كلَّ إحسانِ
سأبكي دماً بعد الدموع بعَبرةٍ ... تغير إحساني وتعبر عن شاني
وان حياتي اليوَم بعد وفاته ... دليلٌ بأنَّ العذر في كل إنسان
أحقاً سراج العِلم أَخمده الردى ... وهدَّم ركن الدين من بعد شان؟
وغودر في دار البلا علمُ الهدى ... فزعزع اساس مضعضع أَركان؟
فشقَّت عليه المكرمات جيوبها ... وأَلقت رؤوس المجد عنها محانِ؟[3]

(1) ينظر: الموت والانبعاث قراءة في أدب توفيق الحكيم، تأليف جان فونتان، ترجمة: محمد قوبعه، قوبعه، الدار التونسية للنشر، ط1، 1984م: 63.

(2) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان، وتسمى بقاضي القضاة. قال ابن عفيف: كان من خير خير القضاة نزاهةً، وعلماً، ومعرفة، ورزانةً، وعدلاً، وحزامةً، وقد كان قاضياً بقرطبة، وقد تلا محمد بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال، خال المنصور محمد بن أبي عامر. وقد توفي ابن ذكوان سنة 413هـ. ثم تلاه أبو حاتم أخوه. تنظر ترجمته: جذوة المقتبس: 130 – 131؛وبغية الملتمس: 172؛ وكتاب الصلة: 42؛ والمغرب: 1/ 216.

(3) تاريخ قضاة الأندلس: 115 – 116.

في مطلع هذه القصيدة يربط ابن الحناط التشاؤم من الأيّام بالموت، إذ يجد من الأَيام إيذاناً بانقضاء حياة الإنسان، وهو ساخطٌ على الدنيا شاعرٌ بتقلباتها واختلاف أحوالها، ناقلٌ من خلال هذا الحادث الجلل – موت ابن ذكوان – عواطفه ومشاعره انفعالاته النفسية التي أَثرت فيه وانصبت في أبياته، ويبدو في بيته الثالث كأَنّه (لم يتح له أنْ يرى الموت معانقاً الحياة، والفرح ملازماً الترح)[1]، لذا صوّر الموت بأنّه مُخمدٌ للنور مثيرٌ للظلمة، هادمٌ للبناء، معلنٌ للخراب، وكأَنّه يعلن عبثية الحياة بعد الموت، وكيف أن الردى نغص عليه حياته، وقد أَثار زوبعة من المبالغات التي رسمها في أَبياته، شاعراً بضعفه، مبرزاً عاهته، وكأَنّ أَركان بنائه قد تضعضعت بعد رحيل ابن ذكوان.

ولم يكن رثاء ابن الحناط هو الرثاء الوحيد الذي أثر في نفسيته فقد صوّر لنا ابن خلصة رثاء والده بأرق الأبيات حين قال: **(من الخفيف)**

يا ضريحاً حوى عظاماً عظاماً ... لخليلٍ أمسيتُ منه خليلا
اعياءً داويتُ داءً عياءً ... ومحالاً سألتُ رسماً محيلا
إن عهدي وان بليت جديد ... كلما طال زاد شوقيَ طولا
كدتُ أَقضي عليك نحبي نحيباً ... وأَرى ذاك في رضاك قليلاً
وأَحلّ الثرى حلولك فيه ... بدلاً منك لو أَكون بديلا[2]

من خلال تعقيد وتشابك الموت مع العاهة، نقل لنا ابن خلصة الحالة النفسية عند فقدانه لأبيه شاعراً بقساوة الرحيل، مصوّراً ذلك بوقوفه على ضريحه بعد دفنه، وكيف حوى القبر تلك العظام لذلك الأب العظيم، وكيف فارقه بعد ملازمته؛ ولكنه لا يستطيع أنْ ينساه، فقد أَثار الموت فزع ابن خلصة، لذا أراد بر والده ولو بعد الممات متمنياً لو أَنّه يفدي أباه بروحه حتَّى يحل هو مكانه بديلاً وعوضاً؛ ولكن هيهات!

(1) التشاؤم في رؤية أبي العلاء، عبد القادر زيدان، مجلة فصول-القاهرة، مج:4،ع:2،1984م: 207.
(2) الذخيرة: 3: 5/ 245.

لم يستمر ابن خلصة في تشاؤمه ويأسه وتفجعه، بل إنّه رضي بقضاء الله وقدره، وهذا حال كل من له قلبٌ سليم، فقد قال: **(من الخفيف)**

كلنـــا صـــائرٌ إلـــى الله حتمـــاً ... واســـتراح العـــذول والمعـــذول
وقصـــارى بـــين القصـــور قبـــورٌ ... ويهـــبُّ الصـــبا بهـــا والقبـــول
سُـــنّةُ الله فـــي العبـــاد ومـــا فـــي ... سُـــنّةِ اللهِ للـــورى تبـــديل
حُكمُـــهُ الفصـــلُ لـــيس عنـــه انفصـــالُ ... وَهُـــوَ العـــدلُ لـــيس عنـــه عـــدول[1]

إنَّ القارئ لهذه الأبيات يكون على يقين بأن ابن خلصة قد هان عليه الموت، وآمن به، وعرف أنه سنة الله في خلقه، واستسلم لقضاء الله وقدرته.

ولم يكن ابن خلصة وحده في هذا الموقف، بل إنّ جميع الخلائق خاضعة لهذا القانون الرباني، ويطالعنا رأي الدكتورة: عائشة عبد الرحمن في هذا الباب فقد قالت: (هان على الأَحياء منا أَنْ يودعوا أحبابهم في الحفرة الموحشة، وأنْ يطيقوا بعدهم محنة العيش إلى ان يحين الأَجل المحتوم فيلتئم الشمل الممزق. ولولا هذا الرجاء لأَلقى بهم اليأس في جحيم من العذاب لا نجاة منه إلاَّ الفرار إلى الموت)[2].

وقد سرى هذا الإيمان إلى الحصري حين قال: **(من الكامل)**

فخـرت بـه الأحيـاء ثـم إذ انقضـى ... فخـرت بـه المـوتى علـى الأحيـاء
لهفـي علـى ريحانـة راحـت إلـى ... مثـوى ثـوابٍ ليـت فيـه ثـوائى
سـالت حشاشـة نفسـه مـن أنفـه ... فشـهدت منـه مصـرع الشـهداء
ونظـرت فـي قطـع الرعـاف فلـم تمـط ... حكـم المنيـة حيلـة الحكمـاء
وإذا أراد الله ميتـة مـدنفٍ ... أخفـى علـى الأسـى دواء الـداء[*]

(1) الذخيرة : 3: 5/ 245.
(2) مقال في الإنسان دراسة قرآنية: 123.
(*) مدنف: الثقل من المرض. الصحاح: دنف.
(**) أدواه: أمرضه. (الصحاح: دوى).

داواه مـــن أدواه[**] حتـــى قـــال لـــي لا تـــأتني مـــن ذا الـــردى بـــدواء[1]

في المقطوعة التي نظمها الحصري في رثاء ولده، يبدو عليها العاطفة الجياشة التـي تخللـت فـي أثنائهـا، وأضـفت عليـه الألفـة والمـودة والحـب العميـق لهـذا الابـن المحبوب الذي فخرت به الأحياء والأموات، متمنياً أن يفديه بنفسه لينعم هو بالحياة.

لم يكن الحصري متفائلاً في هذه الأبيات بل إن تشاؤمه طغى على أغلب أبياته لما للعاهة من تأثير في نفسيته مضافاً إليها موت زوجتـه وأولاده. كمـا بينـتُ هذا مـن قبل. ناقلاً لنا في أبياته عبثية الحياة به، مصوراً حزنه وكآبته من مشهد الرعاف الذي أصاب ابنه، فغشى الدم وجهه، حتى خرجت روحـه، وهو واقف يشعر بـه ويحس تدفق دمه الغزير، حتى خرجت روحه مع رعاف الدم من انفه ليثبت لابنـه كبريـاءه وعظمته.

وكم حاول الحصري تأخير ابنه عن المنية ولكنه لم يستطع ولن يستطيع!؛ لان حكمة الله كائنة، ولا بدّ منها، لذلك استسلم لهذه الارادة الربانية بقوله:

وإذا أراد الله ميتـــــــة مـــــــدنفٍ أخفـــى علـــى الأســـى دواء الـــداء

وله قصيدة أخرى في المعنى نفسه، يطغى عليها الإيمان المطلق بـالموت، وأن الحيـاة زائلـة، وأن الـردى يحصـد الصـغير والكبيـر، الغنـي والفقيـر، الحسـن والقبـيح. بقوله:

(من المجتث)

ومـــــا علـــى الـــدهر ذنـــبٌ فيلـــــــــزم الاعتـــــــــذارُ
انظـــــر إذا المـــــوت أوفـــــى هـــــل للهمـــــام انتصـــــارُ
لا يشـــــــمتن الأعـــــــادي فلـــــيس بـــــالموت عـــــارُ
لكـــــل حـــــي ممـــــاتٌ وكـــــل عمـــــرٍ معـــــارُ
قـــد اســـتوت فـــي التنـــاهي طوالهـــــا والقصـــــارُ

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 274.

أعمـــــال شـــــيبٍ وطفـــــلٍ كـــــأنهن اختصـــــارُ
ولا يفتـــــنَّ بيـــــاض الـــــ ـــــخدود ولاحمـــــرارُ
لا الياســـــمين المنـــــدى يبقـــــى ولا الجلنـــــارُ
والآس ان كـــــل نـــــورٍ ذوى وفيـــــه اخضـــــرارُ
فأنـــــه ســـــوف يـــــذوى ويعتريـــــه اصـــــفرارُ
يـــــا بـــــدرُ كنـــــت منيـــــراً حتـــــى محـــــاك الســـــرار*
يـــــا غصـــــن أصـــــبحت يبســـــاً فـــــأين تلـــــك الثمـــــار[1]

لقد تمكن (عبد الغني) ابن الحصري من قلب أبيه، لهذا زجه في أغلب أشعاره لمكانته عنده، وتفضيله له على سائر إخوانه، لذا جاء موقف الحصري من ابنه الميت، متجهاً نحو التضارب في رسم وإبداع الثنائية المتضادة وهي الحياة والموت، فهو يعز عليه أن يفارقه؛ لارتباطه به بروابط قوية وثيقة، وهذا الشعور بألم الفقدان الذي لا رجعة بعده، والشعور المضاد الذي يتولد من الخوف الطبيعي من الموت والعدم، هو الخوف الذي ولّده (عبد الغني) لأبيه وهو على عتبة الموت.

إن الحياة أخذت من شاعرنا أكثر مما أعطته !؟ وزرعت في قلبه بغضها عندما سلبته ما وهبت فضاق بها، وسخط عليها، ونشبت بينهما حرب عوان، تماسك بها شاعرنا حيناً، وغلب على أمره في أغلب الأحيان[2]، لذلك رأينا أكثر سخطه على علـــى الحيـــاة حتـــى كرههـــا وتمنـــى مفارقتهـــا، فهـــو يقـــول:

(من الطويل)

(*) السّرار، بفتح السين وكسرها مع الشد: آخر ليلة في الشهر. (الصحاح: سرر).
(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 327.
(2) ينظر: ابن حمديس الصقلي شاعراً، الدكتور سعد إسماعيل شلبي، دار الفكر العربي – القاهرة، القاهرة، د. ط، 1986م: 125.

كرهـت حيـاتي، واسـتطبت منيتـي إذا ضـحكت سـني، فعينـي دمـاً تبكـي
كبـرت علـى شـكوى الزمـان وأهلـه ودهـر خـؤونٍ لسـت عنـه بمنفـكِّ[1]

يستطيب الحصري منيته في أبياته متمنياً إنهاء هذه الرحلة الشاقة المضنية التي طالما أشعرته بالحزن والحرمان، خالقاً بذلك عدائية مجحفة ضد الزمان، الذي أشعره بأنه في معركة دائمة أزلية، وشاعرنا هو الوحيد المهزوم فيها والخاسر الضعيف أمام بطش الزمن ومفاجأته الكثيرة على الحصري[2].

ويكرر كره للحياة وسخطه عليها في أبيات كثيرة نذكر منها: **(من المجتث)**

هـــو الحســـام فـــويلي أفـــي الضـــريح غمدتـــه
لا حبـــذا العـــيش إنـــي علـــى الممـــات حســـدته[3]

وله في المعنى نفسه: **(من المجتث)**

لا مرحبـــاً بحيـــاتي مـــات الكـــرام الخيـــار
ولا ســـقتني الغـــوادي حســـبي الـــدموع الغـــزار
ســـبقتني وعـــداني عـــن اللحـــاق العثـــار[4]

ولـه أيضـاً: **(من المنسرح)**

مـن أجـل حزنـي عليـه يعجبنـي عـيش أمـرَّ الحمـام أحـلاهُ
وددت – لـولا ثـواب ربـي – لـو أمـاتني قبلـه وأحيـاه

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 233.
(2) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: 237.
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني: 285.
(4) م. ن: 328.

ليجعـــل الصـــالحات فـــي عقبـــى باقيـــــةً بالحميـــــد عقبـــــاه[1]

يصور الحصري في هذه الأبيات، صورة رثاء خرجت إلى مدح ابنه ورفع شأنه، وقد ثبت ذلك في قوله (هو الحسام)، ويأتي بعد ذلك ويتفجع عليه، حتى حسده على موته، بل إنه سئم الحياة بعد ممات ابنه الذي سبقه، متحيراً؛ لأنه باقٍ بعده على قيد الحياة وكأنه تعثر عن اللحوق به في قوله: (سبقتني وعداني عن اللحاق العثار)، ومن ثم يشعر بأن الموت مذاقه أحلى من الحياة، ويود لو أنه افتدى ابنه بنفسه وكل هذا العجز والضعف والقهر خلفه له ابنه.

وفي نهاية المطاف يستسلم الحصري استلامه الأخير، معلناً إيمانه بالقدر، وبالأجل، وقد شاب شعره، وضعف جسمه، وبان عظمه.

يا له من مشهدٍ عظيم، بعد كل تلك التمنيات، والإلحاح على مفارقة الحياة، والالتحاق بابنه الذي أدمى قلبه، وحطم أمله، وفك شمله عن الدنيا وارتباطه بها، يؤمن بأن ﴿لكل أجل كتاب﴾ [2] إيمانا راسخاً، إذ يقول: **(من الوافر)**

هـــي الأقـــدار لـــيس نقـــي دروع مـــن اســـتولت عليـــه ولا صـــروحُ
دنـــا منـــي الرحيـــل وقـــل زادي وشـــبت ومـــا لأعمـــالي صُـــلُوح*
ومـــا أذنبـــتُ محضـــاً فـــي كتـــابٍ ومحـــو الـــذنب تـــوبتي النصـــوح
فهـــلا تبتهـــا مـــن قبـــل يـــومٍ بمـــا أســـررتُ مـــن ســـوء يبـــوحُ[3]

بهذه التوبة والرجعة يعود الشاعر إلى ما بدأ به من الإيمان وانتظار أجله المحتوم، منفذاً بذلك زمنه المكتوب، (على هذا النحو يكون الزمن حسياً بالنسبة إلينا،

(1) م. ن: 433.
(2) الرعد: 38.
(*) يقال: صلح يصلح صَلاحاً وصلوحاً فهو من مصادر الفعل صلح.(لسان العرب : صلح)
(3) الحصري: 303. وللمزيد من أمثلة الحياة والموت عند الحصري. ينظر الحصري (128، 232، 232، 289 موضعان، 294، 295، 301، 326، 329، 333، 352، 353، 477، 486، 489).

ويكون محسوساً أكثر في حالات القلق والافتكار بالموت، لا نعني القلق من هذه الآلام أو من التخلي، بل نعني القلق أن لا نعود شيئاً يذكر، وان يتهدم على هذا النحو عالم بأسره)[1].

أما الأعمى التطيلي فقد أوضح ثنائية الحياة والموت بأسلوب تفوح منه روائح النصح والإرشاد منسقاً فيما بينهما (ففي نفسه روح دينية قوية تركت بصماتها جلية في أدبه وحياته، واستجابت نفسه من خلالها إلى ضروب الخير والفضيلة)[2]. فهو يقول:

(من البسيط)

سل المنايا، على علم وتجربة ... في أي شيءٍ بغى الإنسان أو حسدا
تنافس الناس في الدنيا وقد علموا: ... أن سوف تقتلهم لذاتهم بددا
تبادروها وقد آدتهم فشلاً* ... وكاثروها وقد أحصتهم عددا
قل للمحدِّث عن لقمان أو لبدٍ ... لم يترك الدهر لقماناً ولا لبدا**
وللذي همه البنيان يرفعه ... إن الردى لم يغادر في الثرى أسدا
ما لابن آدم لا تفنى مطالبه ... يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غدا[3]

يبدأ مقطوعته بالوعظ والترغيب ويضمنها معنى الآية القرآنية: ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [4] وأسماء من القران الكريم: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ [5] فإشارته إلى هذه المضامين تبعث على الاعتقاد أن لها في قلب الرجل تقديراً كبيراً يجعلها قريبة من خاطره في أغلب

(1) جدلية الزمن، غاستون باشلار، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – الجزائر، ط2، 1988م: 48.
(2) الأعمى التطيلي حياته وأدبه: 106.
(*) آدتهم: بهظتهم وأثقلتهم. (لسان العرب: أود)؛ فشلاً: ضعفاً (لسان العرب: فشل).
(**) لبد: آخر نسور لقمان وفاة؛ وهو مضرب المثل بطول العمر. (لسان العرب: لبد).
(3) ديوان الأعمى التطيلي: 27.
(4) الجن: 28.
(5) لقمان: 12.

الأحيان. وقد جاءت المضامين الدينية على سبيل التشبيه أو الاعتراض، ولم يرد أي من تلك الأمثلة مقصوداً غير أن لورودها دلالة على تعلقه بها وحضورها في خاطره. ولقد كوّن التطيلي العلاقة الضدية، وهي تسمية الشيء باسم ضده حين قال في البيت الثاني من هذه المقطوعة:

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا: أن سوف تقتلهم لذاتهم بدداً

فاللذات ما يتلهى به المرء ويسعد بمناله؛ ولكن التطيلي استخدمه ضدها مجازاً.

ويرتبط هذا المعنى بعاهة الكف، وتشاؤم المكفوف منها[1] فـ (لكي يخرج الشاعر نفسه من دائرة اتهامه بالكآبة الناتجة من عماه، نجده كثيراً ما يفلسف كآبته ويجد لها مخارج وتصريفات، مبرراً ذلك باعتذار، وأسباب تتعدى حالة عماه، فينصرف إلى ذكر المنغصات الحياتية، والعوامل المحيطة بالفرد ويعد اللذة المتحققة بالنظر؛ سبباً من أسباب الإغراء بالتواصل مع لعبة الحياة الزائفة)[2].

وله في المعنى نفسه: **(من الرمل)**

لا يغرنك شيءٌ بائدٌ انه لو كان شيئاً لم يبدْ
سدّ الموت لأعمار الورى فليعش من شاء ما عاش لبدْ[3]

إن إعادة هذا المعنى يدل على تشبع روح التطيلي بالعاطفة الدينية ونزعة الخير في نفسه. فهو يقول:

(من البسيط)

لا عين يبقى من الدنيا ولا أثرا فكيف تسمع إن دكت وكيف ترى
حسب الفتى نظرةً في كل عاقبةٍ لولا تمنعه عنت له نظرا
ما أشبه الموت بالمحيا وأجدر من لا يعرف الورد أن لا يعرف الصدرا
وافرغ لشانيك: من قولٍ ومن عملٍ كل سيجري مداه، طال أو قصرا

(1) ينظر: الأعمى التطيلي شاعر عصر المرابطين (دراسة موضوعية فنية): 186.
(2) نقد الشعر من المنظور النفسي: 133 – 134.
(3) ديوان الأعمى التطيلي: 39.

اعـدَّ زادك: مـن قـولٍ ومـن عمـلٍ إن المقـام إذا طـال اقتضـى السـفرا
وسل عن الناس هل صارو مصيرهم فمـا أظنـك ممـن يجهـل الخبـرا
قضـيت حاجـة نفسـي غيـر مشـكله في الموت لم اقضِ من علمٍ بها وطرا[1]
وطـــــــــــــــــــــــــــــــرا[1]

بهذه النظرة الفلسفية عن الحياة والموت لوّن التطيلي شعره ببعض الخلجات والعواطف النفسية عن كل ما يتدرج تحت مفهوم الحياة والموت وببعض المفاهيم العقلية والمنطقية، والأفكار الجادة المتأملة، كالحكم البليغة.

ولو تأملنا مفهوم الحكمة لوجدناه نابعاً ممن يعتاد التأمل وطول الفكر، ومن يفيدهم من خبرات الحياة وتجاربها إذا كانت لديه ركيزة ثقافية يعتمد عليها، وفلسفة في الحياة يراها ويتميز بها، لذا كان التطيلي شاعراً مفكراً، ذا ثقافة واسعة، تنم على إدراكه للحياة مازجاً تلك الأفكار والثقافة بنظره دينية زاهدة في الحياة.

بل إنه جعل الإنسان الذي لا يتذكر الموت ويعمل له مغفلاً، لقوله:

(من الطويل)

ونبئـت أن المـوت يختـرمُ الفتـى ولـم يقـضِ مـن لذاتـه مـا يؤمـل
فـإن كـان مـا نبئـت حقـاً فـان ذا لمنتهـــــــزٌ، وان ذا لمغفّـــــــلُ[2]

يبدو أن الأعمى التطيلي قد سخط على الحياة وكرهها وزهد فيها؛ ولكن لم يصل كرهه إلى ما وصل إليه الحصري من قبل. فقد قال: **(من البسيط)**

مـا فـي الحيـاة لنفسـي بعـدهم طمـع آهـاً علـى حُسـن وجـه حـال رونقـه[3]

(1) م. ن: 43.
(2) ديوان الأعمى التطيلي: 126.
(3) م. ن: 238.

وفي نهاية حكمه وزهده في الحياة، يتمنى أن تكون حياته صدقاً، وموته كرماً، منادياً على حياة كل كريم أن تكون هكذا: **(من البسيط)**

حياة صدقٍ وموتٌ في ذرى كرمٍ يا نفس كل كريم هكذا كوني[1]

أمّا أبو زيد السهيلي فإنه يربط الحياة والموت بالمرأة وما تشكله على الشاعر من وصل وصدود، فإن هي وصلته كانت له الحياة، وإن هي قطعته كان الموت الزؤام. فقد قال:

(من المتقارب)

إذا قلت يوماً سلامٌ عليك ففيها شفاء وفيها سقام
حياةٌ إذا قلتها مقبلاً وان قلتها معرضاً فالحمام
فاعجب من ضد حاليهما وهذا سلام وهذا سلام[2]

أبدع السهيلي في هذه الأبيات تضاداً بين الحياة والموت: (شفاء × سقام، حياة × حمام، مقبلاً × معرضاً) وكأنه أراد وصف الحضور والغياب، فإنه بحضورها يكون الشفاء والسعادة، وبغيابها السقم والتعاسة.

أما ابن جابر فقد كانت نظرته إلى الحياة والموت نظرة ثاقبة، إذا أخذ من الحياة وجعل خلفها الترغيب والتفاؤل والأمل، والموت يستتر خلف الترهيب والوعظ والإرشاد. بأسلوب سلس مبتكر، داعياً إلى الحكمة تارةً، وإلى الحب تارةً أخرى.

وقد اقتبس من القران الكريم والأحاديث النبوية – سواءٌ أكان هذا الاقتباس مباشراً أم غير مباشر – ولا يخفى ما لهذين المصدرين من صورة مثالية في مبانيهما

(1) م. ن: 208. وللمزيد من أمثلة الحياة والموت. ينظر ديوانه: (4، 20، 26، 38، 85، 96، 197، 204، 213، 228، 234).
(2) زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر: 139.

ومعانيهما[1]، فقد قال: **(من السريع)**

يا صاحب المال الم تستمع ... لقوله ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ [2]
فاعمل به خيراً فو الله ما ... يبقى ولا أنت به مخلدُ[3]

تعد وعظية ابن جابر في هذين البيتين دعوة إلى البذل والإنفاق، مقتبساً آية من القرآن ليزداد التوكيد في ذلك. مبيناً بذلك أن الحياة باطلة والموت حق.

ثم يقتبس بعد ذلك من الحديث النبوي اقتباساً غير مباشر.

لقوله: **(من البسيط)**

خذ من فراغك قبل الشغل مجتهداً ... ومن حياتك قبل الموت واختصرِ[4]
ووقر الشيب بالتقوى فما بصرت ... عينٌ بأقبح من لهوٍ على كبر
وخير ما أبصرتهُ العينُ فضل تقى ... مع الشباب وفي أغصانه النضر
احذر فؤادك أن تعمى بصيرته ... فهو العمى لا احتجاب الطرف عن نظر
فلن ترى العين حيث القلب ليس يرى ... عمى البصائرِ أدهى من عمى البصر[5]
البصر[5]

في هذه الأبيات يريد الشاعر أن يشعر الإنسان بقيمة الوقت، وأنه إذا ذهب فلن يعود، مقتبساً معنى حديث الرسول (ﷺ)، رابطاً بذلك علامات الوعظ كلها من شيب

(1) ينظر: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، الدكتور الدكتور منجد مصطفى بهجت، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1986م: 481.
(2) قال تعالى: ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ﴾. النحل: 96.
(3) شعر ابن جابر الأندلسي: 35.
(4) قال (ﷺ): (اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك). المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1990م: 4/ 341.
(5) نظم العقدين: 217.

وكبر وتقى بالنظر، مفضلاً البصيرة على البصر وجاعلاً لها المكانة الكبرى على تصرفات وإرادة الإنسان، مدافعاً عن عاهته مرة، وساتراً لها مرةً أخرى، فإن العمى الحقيقي هو عمى القلب وليس عمى البصر كما يتضح ذلك من أبياته محاولاً صبها في معاني الحياة والموت. بل إن ابن جابر يريد الإسراع والتعجيل في قضاء الحاجات، والعبادات والمحافظة عليها لقوله:

(من الطويل)

وعجّل إليه القصد فالعمر أحرفٌ ... وأيدي المنايا قد شُغلن بها قشطا
وكن خائفاً فوت الحياة فللردى ... دبيب إلى الإنسان كالحية الرقطا[1]

فيسعى ابن جابر إلى إيصال هذا الإرشاد بصورة يريد بها لفت انتباه الإنسان بوعظية هادئة؛ لأن الزمان لا ينتظر أحداً، حتى يصل إلى تصوير الموت الذي اثار فزعه فجعله كالحية الرقطاء، فهي تسير بهدوء تام، وانسيابية صامتة حتى إذا تمكنت من فريستها لم تفلتها، وكذلك الموت فله الصورة نفسها على أرض الواقع فقد يعرف الإنسان أنه بصحة جيدة وإذا به ينقض الموت عليه فيكون جثة هامدة لا حراك بها.

ولم يجعل ابن جابر هذه الثنائية – الحياة والموت – تمر دون تضمينها المرأة التي شغلت فكره – كما يبدو 0 حتى في الممات لقوله: **(من المجتث)**

كم زرت دارك ليلاً ... والموت دون لقاك
فقلت للنفس موتٌ ... أو تبلغين منالك
فسرت مالي دليلٌ ... إلا دليل شذاك[2]

وله في المعنى نفسه: **(من المتقارب)**

(1) نظم العقدين : 316 – 317.
(2) ديوان المقصد الصالح: 320.

جرى من صدودك ما قد جرى بحرمة ما بيننا لا تزيدي
تعمدّت قتلي بلا موجب فرفقاً بهذا القتيل العميد
بحسبي اني شهيد الهوى فيا رحمتا للمحب الشهيد[1]

إن النص الأول يستهين بالموت في سبيل رؤية حبيبته مازجاً في ذلك بين الموت وحاسة الشم التي أوصلته إلى دار الحبيبة التي تعوضه البصر.

أمّا النص الثاني فيصور صد المرأة عنه، وإعراضها طالباً منها من أن لا تزيد؛ لأنه سيكون قتيلاً بسببها، راجياً منها أن ترفق بقتيلها؛ لأنه ظن أن قتيل الحب يكون شهيداً، لذلك يريد رحمتها في قتله.

لقد استهان الشاعر بحياته أمام المرأة وكأنه جعلها هي الحياة، وصدها هو الموت المحقق.

إن الحبّ عند الشاعر المكفوف شيء مقدس، لذا بمجرد صد المرأة عنه تتسرب إليه فكرة الموت، ويشعر أن عمُرهُ قد أشرف على نهايته، مغلقاً عليه كل أبواب السعادة، حتى تعتلج في نفسه مشاعر عنيفة مختلفة، وتثور في عواطفه انفعالات شتى.

وفي النهاية يستسلم ابن جابر – كاستسلام الحصري – لقضاء الله وقدره موقناً أن الموت يأتي بغتة، وأن الآجال لا تتقدم ولا تتأخر، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[2] ناصحاً العباد الرضا بحكم الله سبحانه وتعالى والإكثار من الصالحات حتى تعمر الآخرة وتحب لقاء الله سبحانه وتعالى. يقول:

(من الكامل)

إن الشدائد لا تقصّر مدّةً ومواعدُ الآجال لن تتقلّبا
ما قد حباهُ الله ليس بزائد شيئاً ولا هو ناقصٌ عما حبا

(1) ديوان المقصد الصالح : 333.
(2) الأعراف: 34.

سـلّم لأمـر الله وارض بحكمـه وإذا أتـاك قضـاؤه قـل مرحبـا[1]

لقد شعر ابن جابر بأن عمره القصير مهما طال لن يمنح فرصة الارتواء من هذه الحياة قبل الموت، لذا نراه غير متشبث بالحياة ولا متمسكاً بها، ولا حريصاً عليها.

(1) نظم العقدين: 81. وللمزيد من أمثلة الحياة والموت عند ابن جابر. ينظر نظم العقدين: (46، 52، 80، 83، 84، 100، 101، 140، 213، 214، 298، 326، 531)؛ شعر ابن جابر: (18، 19، 112)؛ ديوان المقصد الصالح: (43، 113، 181، 200).